

سُورَةُ النُّوْرِ



النَّزْولُ: مدنية.

المقاصد:

- ١ - بيان الآداب الاجتماعية السامية لدى المسلمين.
- ٢ - كمال التدابير الوقائية من الوقوع في الفاحشة.
- ٣ - براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.
- ٤ - تعظيم نبينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَا فِيهَا إِيَّاكَ بِيَنَتِ لَعْلَكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾١ الْزَانِيَةُ وَالزَانِي فَاجْلِدُو كُلَّ وَجْدٍ مِنْهُمَا مِائَةً جَلْدًا وَلَا تَأْخُذُوهُ بِمَا رَأَفْتُمُوهُ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِيَشَهَدَ عَذَابَهُمَا طَاغِيَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾٢﴾ الْزَانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانِيَّ أَوْ مُشْرِكٌ وَحِيمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوْ بِأَرْبَعَةِ شَهَادَةٍ فَاجْلِدُوهُنَّ ثَمَنِينَ جَلْدًا وَلَا نَقْبِلُو لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَنِسِقُونَ ﴾٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾٥﴾

سبب النزول:

نزلت الآيات العشرة الأولى من هذه السورة في براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، مما قيل فيها من القول الكبار الذي افتراء رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلوى.

(ينظر: صحيح البخاري، التفسير، برقم ٤٧٥٠. وصحيح مسلم، كتاب التوبه، باب في حديث الإفك، برقم ٢٧٧٠).

التفسير:

١ - هذه سورة عظيمة الشأن أنزلناها - بما لنا من العظمة - على رسولنا محمد صلوات الله عليه وآله وسلام، وأوجبنا أحکامها، وأنزلنا فيها آيات واضحة في حدودها ومواعظها وأحكامها؛ لتعظوا بها، وتستنروا بنورها.

٢ - الزاني والزانية غير المحصنين، فاضربوا كلَّ واحد منهما مئة جلد بالسوط، وغَرِبُوه عاماً - كما ثبت في السنة المشرفة - عقوبةً على هذه

الجريمة. ولا تَحْمِلُكُم الرأفة بهما على تعطيل هذا الحكم الربّاني ، إن كنتم تُصَدّقون بالله واليوم الآخر، ولِيَخْضُر العقوبة طائفة من المؤمنين - واحد فأكثر - زجراً واعتباراً.

عن أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما : أنَّ رجلين اختصما إلى رسول الله صلوات الله عليه وسلم ، فقال أحدهما : اقض بيننا بكتاب الله ، وقال الآخر - وهو أفقهما - : أهل يا رسول الله ، فاقض بيننا بكتاب الله ، وأذن لي أن أتكلم . قال : تكلم ، قال : إن ابني كان عسيفاً على هذا - قال مالك : والعسيف الأجير - زنى بأمرأته . فأخبروني أنَّ على ابني الرجم ، فافتديت منه بممتلي شاة وجارية لي ، ثم إني سالت أهل العلم فأخبروني أنَّ ما على ابني جلد مئة وتغريب عام ، وإنما الرجم على امرأته ، فقال رسول الله صلوات الله عليه وسلم : «أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيده لِأَقْضِيَنَّ بِيْنَكُمَا بِكِتابِ اللَّهِ: أَمَا غَنْمُكُ وَجَارِيَتُكُ فَرِدٌ عَلَيْكُ، وَجَلْدٌ أَبْنَهُ مَئَةٌ وَغَرَبَهُ عَامًا، وَأَمْرٌ أَنِيسًا إِلَّا سَلَمَيْ أَنْ يَأْتِي امْرَأَةُ الْآخِرِ إِنْ اعْتَرَفَ رَجَمَهَا. فَاعْتَرَفَ فَرَجَمَهَا». (صحیح البخاری / ١١ / ٥٣٢ - کتاب الأیمان والنذور، باب کیف كانت يمين النبي صلوات الله عليه وسلم برقم ٦٦٣٣، ٦٦٣٤. و صحیح مسلم / ٣ / ١٣٢٤ - ١٣٢٥ برقم ١٦٩٧، ١٦٩٨).

٣ - سبب النزول:

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له: مرثد بن أبي مرثد ، وكان رجلاً يحمل الأسرى من مكة حتى يأتي بهم المدينة ، قال: وكانت امرأة بغي بمكة يُقال لها: عناق ، وكانت صديقة له ، وإنه كان وعد رجلاً من أسرى مكة يحمله ، قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة ، قال: فجاءت عناق فأبصرت سواد ظلي بجنب الحائط ، فلما انتهت إلى عرفنها ، فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد . فقالت: مرحباً وأهلاً هلَّمَ فِيْتْ عندنا الليلة ، قال: قلت: يا عناق حَرَمَ اللَّهُ الزِّنِي ، قالت: يا أهل الخيام ، هذا الرجل يحمل أسراكم ، قال: فتبعني شمانية ، وسلكت الخندمة فانتهيت إلى كهف أو غار فدخلت ، فجاؤوا حتى قاموا على رأسي وبالوا ، فطلّ بولهم على رأسي ، وأعمامهم الله عني ، قال: ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي فحملته ، وكان رجلاً ثقيلاً حتى انتهيت إلى الإذخر ، ففككت عنه كُلَّه ، فجعلت أحمله ويعينني ، حتى قدمت المدينة ، فأتيت رسول الله صلوات الله عليه وسلم

فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً؟ فأمسك رسول الله ﷺ، فلم يرد عليّ شيئاً حتى نزلت: ﴿الَّذِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانِ أَوْ مُشْرِكٌ وَحْرَمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «يا مرشد، الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك، فلا تنكحها». (آخرجه الترمذى في السنن ٣٢٨/٥ - ٣٢٩ - كتاب التفسير - باب سورة النور - برقم ٣١٧٧). وحسنه الألبانى في صحيح سنن الترمذى برقم ٣٥٣٨. وأخرجه الحاكم، وصححه ووافقه الذهبى (المستدرك ١٦٦/٢). والخدمة جبل بمكة المكرمة قرب المسجد الحرام).

التفسير:

يُنَفِّرُ الله سبحانه من خطر الزنى الذي يُدَنِّس عِرْضَ صاحبه، ويُلَوِّثُ جسده، فأخبر أنَّ الزاني لا يُتهاون في نكاحه من النساء إلا أنسى زانية، تناسب حالها، أو مشركة لا تعرف بحرمة الزنى، والزانية لا ينكحها إلا زان، أمَّا العفيف فلا يتقدَّم إليها، أو ينكحها مشرك لا يعترف بحرمة الزنى. وحرّم ذلك النكاح على المؤمنين، ما لم يتُّب الزاني والزانية. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله». (آخرجه أبو داود، السنن، النكاح بباب قوله تعالى: ﴿الَّذِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾ برقم ٢٠٥٢. وصححه الألبانى في صحيح سنن أبي داود برقم ١٨٠٧).

٤ - ٥ . والذين يُقْدِفُونَ بِالزَّنِي النُّفُوسَ الْعَفِيفَةَ مِنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ، ثُمَّ لَمْ يُثْبِتوا جُرْيِمَةَ الزَّنِي بِأَرْبَعَةِ شَهُودٍ عَدُولٍ، فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدًا بِالسَّوْطِ، وَلَا تَقْبِلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبْدًا مَا لَمْ يَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَأُولَئِكَ الْبَعِيدُونَ عَنِ الْحَقِّ هُمُ الْخَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ الْقَذْفِ، وَنَدَمُوا وَرَجَعُوا عَنِ التَّهْمَةِ، وَأَصْلَحُوا أَعْمَالَهُمْ وَمَا أَفْسَدُوهُ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ لِذَنْبِهِمْ، رَحِيمٌ بِهِمْ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - بيان حد الزانية والزاني البُكَرَيْنِ الْحُرَّيْنِ، وهو مئة جلد وتحريف عام.
- ٢ - بيان حد الزانية والزاني المحصنين الرجم.
- ٣ - تطبيق الحد الشرعي على مستحقيه بما يُرْدِعه ويزجره دونما تنازل بدعوى الرأفة والرحمة؛ فالله تعالى هو العليم بما يُصلح عباده.

٤ - حَدُّ مَنْ ثَبَتَ عَلَيْهِ الْقَذْفُ أَنْ يُجْلِدَ ثَمَانِينَ جَلْدًا.

٥ - التوبه من القذف لا ترفع الجلد، وترفع رد الشهادة والوصف بالفسق عن القاذف.

٦ - تحريم القذف، وهو رمي الإنسان أو سبّه بما ليس فيه؛ كمن يقذف امرأة عفيفة، أو رجلاً عفيفاً بالزنى.

٧ - حماية المرأة من القذف والدفاع عنها بعقوبة القاذف.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَرْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَهُ أَحَدٌ هُرْ أَرَبَعَ شَهَدَاتٍ بِإِنَّهُ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّدِيقِينَ ﴾١١﴾ وَالْخَمْسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٢﴾ وَيَدْرُؤُهُ عَنْهَا الْعَذَابُ أَنْ تَشَهَّدَ أَرَبَعَ شَهَدَاتٍ بِإِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٣﴾ وَالْخَمْسَةُ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّدِيقِينَ ﴿١٤﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَابٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

٦ - ٧ - سبب النزول:

عن عبد الله رضي الله عنه قال: إنا ليلة الجمعة في المسجد. إذ جاء رجل من الأنصار فقال: لو أنّ رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فتكلم جلدته، أو قتل قتلتموه، وإن سكت سكت على غيظ. والله لأسألنّ عنه رسول الله صلوات الله عليه. فلما كان من الغد أتى رسول الله صلوات الله عليه فسألة. فقال: لو أنّ رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فتكلم جلدته، أو قتل قتلتموه، أو سكت سكت على غيظ. فقال: «اللهم! افتح» وجعل يدعوا. فنزلت آية اللعان: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَرْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ هذه الآيات. فابتلي به ذلك الرجل من بين الناس. فجاء هو وامرأته إلى رسول الله صلوات الله عليه فتلاعنه. فشهد الرجل أربع شهادات بـإنه لـمن الصادقين. ثم لعن الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. فذهبت يتلعن. فقال لها رسول الله صلوات الله عليه: «مَهْ» فأبانت فلعن. فلما أدبرا قال: «لعلها أن تجيء به أسود جعداً»، فجاءت به أسود جعداً. (صحيح مسلم ١١٣٣/٢ برقم ١٤٩٥ - كتاب اللعان).

التفسير:

والأزواج الذين يقدفون زوجاتهم بتهمة الزنى، وليس لهم شهود على التهمة إلا أنفسهم، فشهادة أحدهم لرُفع حَدُّ القذف عنه أن يحلف بالله أمام القاضي أربع مرات من الأيمان، إِنَّه لمن الصادقين فيما رمى به زوجته من الزنى، ثُمَّ يَشْهُدُ فِي الشَّهادَةِ الْخَامِسَةِ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ تَحْلُّ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ.

٩ - سبب النزول:

عن ابن عباس رض، أَنَّ هَالَلَ بْنَ أُمِّيَةَ قَذَفَ امْرَأَتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَرِيكَ بْنَ سَحْمَاءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْبَيِّنَةُ أَوْ حَدُّ فِي ظَهَرِكَ». فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَا رَأَى أَحَدُنَا عَلَى امْرَأَتِهِ رَجُلًا يَنْطَلِقُ يَلْتَمِسُ الْبَيِّنَةَ؟ فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «الْبَيِّنَةُ أَوْ حَدُّ فِي ظَهَرِكَ». فَقَالَ هَالَلُ: وَالَّذِي بَعْثَكَ بِالْحَقِّ إِنِّي لصادقٌ، فَلَيُنْزَلَنَّ اللَّهُ مَا يُبَرِّئُ ظَهْرِيَّ مِنَ الْحَدَّ. فَنَزَّلَ جَبْرِيلُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ وَالَّذِينَ يَرْءُونَ أَزْوَاجَهُمْ فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ: «إِنَّ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ»، فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَجَاءَ هَالَلُ فَشَهَدَ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمْ كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمْ تَائِبٌ؟» ثُمَّ قَامَتْ فَشَهَدَتْ؟ فَلَمَّا كَانَتْ عِنْدَ الْخَامِسَةِ وَقَفَوْهَا وَقَالُوا: إِنَّهَا مُوجَبَةٌ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَتَلَّكَاتْ وَنَكَصَتْ حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهَا تَرْجَعُ، ثُمَّ قَالَتْ: لَا أَفْضُحُ قَوْمِيَّ سَائِرَ الْيَوْمِ، فَمَضَتْ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَبْصِرُوهَا، فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَكْحَلُ الْعَيْنَيْنِ، سَابِعُ الْإِلَيْتَيْنِ، خَدْلَجُ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءِ»، فَجَاءَتْ بِهِ كَذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْلَا مَا مَضَى مِنْ كِتَابِ اللَّهِ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ». (صحيح البخاري ٣٠٣/٨ - ٤٧٤٧ - كتاب التفسير، سورة النور الآية نفسها)، وَمَعْنَى: سَابِعٌ: عَظِيمٌ، وَمَعْنَى خَدْلَجٌ: مُمْتَلِئٌ).

التفسير:

وبهذه الشهادات الخمس تستوجب الزوجة عقوبة الزنى وهي: الرجم حتى الموت. ولكن يدفع عنها هذه العقوبة أن تحلف أربع مرات بالله: إنَّ الزوج من الكاذبين فيما رماها به من الزنى، والشهادة الخامسة أَنَّ غَضْبَ الله يَحُلُّ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ زَوْجَهَا مِنَ الصَّادِقِينَ فيما رماها به من الزنى، ثُمَّ يُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا إِلَى الْأَبْدِ.

١٠ - ولولا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهِ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِهَذِهِ الْأَحْكَامِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَوَابٌ لِمَنْ تَابَ مِنْ عَبَادِهِ، حَكِيمٌ فِي شَرِيعَتِهِ، لَعَاجِلُكُمْ بِالْعِقَوبَةِ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - تقرير مشروعية اللعان وكيفيته، وأنه السبيل الأمثل لمن رمى زوجته بالرني.

٢ - إيجاد البديل عن الشهود الأربعة بالشهادات الأربع، إذ من الصعوبة النفسية والواقعية على الزوج أن يأتي بأربعة شهادة يشهدون على زنى زوجته.

٣ - قال الشيخ ابن عثيمين: «إنَّ البدل يجعل له حكم المبدل منه، فلما كانت البينة على الزَّنِي أربعة شهود، وكان الزَّوج إذا قذف زوجته بالزَّنِي يعتبر شاهداً، والتعدد الشخصي في حَقِّه ممتنع، جعل التعدد في نفس الشهادة، ويكون هذا تقريراً للقاعدة المشهورة والمعروفة: (أنَّ البدل له حكم المبدل منه)، فلما كانت شهادة الزَّوج على زوجته بالرِّئي بمنزلة شهادة رجل، صار تكرارها بمنزلة تكرار الرجال وتَعَدُّد الشهود». (تفسير القرآن الكريم: ٢٤٧/٥).

٤ - إفراد الشهادة الخامسة بالذكر؛ لأهميتها وحسمنها الأمر، ولذا فإنَّ القاضي يُشَدِّد على الزوج أو الزوجة قبلها، ويُذَكِّرُهُما بأنَّها موجبة لِلعنة على الزوج إنْ كان كاذباً، وموجبة لغضب الله على الزوجة إنْ كانت كاذبة.

٥ - تعظيم هذا الأمر، بحيث لا يكتفى فيه بالشهادة المجردة، بل لا بدَّ من شهادة مقرونة بيمين، فيقول: أشهد بالله.

٦ - ثبوت الحَدٌّ على المرأة بِلِعَانِ الزَّوجِ، إلا إذا انكرت ولاعنت، يؤخذ من قوله: ﴿وَيَرِدُونَ عَنْهَا الْعَذَابُ﴾، والعذاب هو الحَدُّ.

٧ - يؤدي اللَّعَانُ إلى التَّقْرِيقِ الْأَبْدِيِّ بين الزوجين، إذ لا يتوَقَّعُ رجوع أحدهما إلى الآخر بعد هذا الموقف الدقيق، ولا يُنْسَبُ ولد الملاعنة إلى الزوج.

٨ - لا تُحِيزُ الشَّرِيعَةَ لِمَنْ وَجَدَ زوجته تزني قَتَلَها، بل يُرْفَعُ الْأَمْرُ إلى القضاء، فإن اعترفت قُتِلتُ، وإلا لُوِعِنَ بينهما.

٩ - احترام قرار المرأة ومراعاة رأيها، حتى لو كانت خاطئة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِلْفَكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ أُمَّرِيٍّ مِنْهُمْ مَا أَكْتَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي قَوَّلَ كَبَرُهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ضَنَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شَهَادَةٍ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوْ بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (٣) لَوْلَا فَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمْسَكُمْ فِي مَا أَفْضَيْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤) إِذْ تَلَقَّوْهُ بِالسِّنَّتِكُنْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُوهُ هَيْنَا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (٥) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بَهْنَنْ عَظِيمٌ (٦) يَعْظِمُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْمُ مُؤْمِنِينَ (٧) وَبَيْنَ اللَّهِ لَكُمُ الْأَيْمَنُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حِكِيمٌ (٨)

التفسير:

١١ - يبرئ الله تعالى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من التهمة بالفاحشة التي اختلقتها رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، ويُطمئن قلوب آل أبي بكر: إنَّ الذين جاؤوا بأقبح الكذب الكُبَار جماعة من المسلمين، وبعضهم يُظهرُ الإسلام. لا تظنوا هذه التهمة يا آل أبي بكر شرًّا لكم، بل هي خير لكم؛ لِما فيه من الشرف العظيم ببراءة أم المؤمنين عائشة، وفضح الفاسقين، وموعظة للمؤمنين. لكلٍّ مَنْ تكلَّمَ بِالْإِلْفَكِ جزاءً فِعلَهُ من الذنب. والذى بدأ به واصطنه رأس النفاق عبد الله بن أبي، له عذاب شديد الألم في الآخرة.

عن عائشة رضي الله عنها (والَّذِي قَوَّلَ كَبَرُهُ). قالت: عبد الله بن سلول.

(صحيف البخاري ٣٠٦ / ٨ برقم ٤٧٤٩ - كتاب التفسير، سورة النور. عبد الله هذا هو ابن أبي بن سلول).

١٢ - يعتب الله على المؤمنين الذين لم يُنكرووا هذا المنكر الكبير: هَلَّ حين سمعتم هذا الإفك ظنتم خيراً بأم المؤمنين رضي الله عنها، ورَدَعْتُم القائلين به أنه كَذَبٌ واضح.

١٣ - هَلَّ جاء الخائضون بهذا الإفك بأربعة شهود على افترائهم، فإذا لم يفعلوا فأولئك البعيدون عن العَيْرة، هم الكاذبون الذين يستحقون حَدَّ القذف.

١٤ - ١٦ - يُعاتب الله المؤمنين الذين خاضوا في حديث الإفك، فيقول: ولولا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُم بِبَيَانِ الْأَحْکَامِ، وَرَحْمَتِهِ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا، وَعَدْمِ تَعْجِيلِ الْعِقَوبَةِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْمَغْفِرَةِ لِمَنْ تَابَ، لَتَرَأَلُوكُمْ عَذَاباً عَظِيمًا؛ بِسَبِبِ ذَلِكِ الْخَوْضِ حِينَ تَلْقَفُونَ خَبْرَ الْإِفْكِ، وَتُرَدِّدُونَ فِيمَا بَيْنَكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَهُ حَقِيقَةً، وَتَحْسِبُونَهُ ذَنْبًا صَغِيرًاً، وَهُوَ عِنْدَ اللهِ أَخْطَرُ الْجَرَائِمِ. هَلَّا حِينَ سَمِعْتُمُوهُ أَنْكَرْتُمْ، وَصَرَّحْتُمْ بِتَحْرِيمِهِ، وَتَعَجَّبْتُمْ مِنْ إِفْشَائِهِ، بِذِكْرِ التَّنْزِيهِ لِهِ وَتَعْظِيمِهِ؛ بِسَبِبِ الْكَذِبِ الْكُبَّارِ عَلَى زَوْجَهُ رَسُولِهِ ﷺ.

١٧ - ١٨ - يُحذِّرُهُمُ اللهُ، وَيُحَوِّلُهُمْ أَنْ تَعُودُوا لِمَثْلِ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ الْكَبِيرِيَّةِ أَبَدًا، إِنْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِينَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ. وَيُوَضِّحُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ الْحَكِيمَةِ ذَاتِ الْآدَابِ الْكَرِيمَةِ. وَاللهُ عَلِيمٌ بِأَقْوَالِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ، حَكِيمٌ بِأَحْكَامِهِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من فوق سبع سموات.
- ٢ - بيان شرور المنافقين وخطرهم على الأمة.
- ٣ - بيان القرآن الحُكْمُ الشَّرعي في مثل هذه الواقعة، وكيف ينبغي للMuslimين أن يتصرّفوا تجاهها.
- ٤ - وجوب إقامة الدليل على الدّعوى، والتَّرْوِي قبل نَقْلِ الأخبار.
- ٥ - التحذير من خطر الإشاعة وتأثيرها الكبير في المجتمعات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشْيَعَ الْفَحْشَةُ فِي الَّذِينَ إِمَانُهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾١٩﴾
 ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾٢٠﴾
 ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ إِمَانُوا لَا تَنْبِئُونَ بِخُطُوتِ الشَّيْطَنِ وَمَنْ يَنْبِئُ بِخُطُوتِ الشَّيْطَنِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَرَ مِنْ كُلِّ مِنْ أَهِدَ أَبْدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مِنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾٢١﴾
 ﴿وَلَا يَأْتِي أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةُ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَيِّلِ اللهِ وَلَيَعْفُوا وَلَيَصْفَحُوا لَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾٢٢﴾
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُونٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾٢٣﴾
 يَوْمَ يُرَمَّنَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُونٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ
 يَوْمَ تُشَهِّدُ عَلَيْهِمْ أَسْنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾٢٤﴾
 يَوْمَ يُمَيزُ يُوَفِّهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ
 وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾٢٥﴾
 الْحَسِنَاتُ لِلْحَسِنَاتِ وَالْمُنْكَرُاتُ لِلْمُنْكَرَاتِ وَالْطَّيْبَاتُ لِلْطَّيْبَاتِ
 وَالْطَّيْبُونَ لِلْطَّيْبَاتِ أَوْلَئِكَ مُبَرَّونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾٢٦﴾

التفسير:

- ١٩ - لما حذر الله المؤمنين من العود إلى مثل ما خاضوا به من الإفك، أعقب تحذيرهم بالوعيد على ما عسى أن يصدر منهم في المستقبل بالوعيد على محبة شيوخ الفاحشة في المؤمنين، فالذين يسعون لانتشار الزنى، وترويج الإشاعات في ذلك بين المؤمنين، لهم عقوبة حد القذف في الحياة الدنيا، وفي الآخرة عذاب النار. والله وحده يعلم الحقائق والخفايا، وأنتم لا تعلمون ذلك.
- ٢٠ - ولو لا فضل الله عليكم - أيها المؤمنون - ورحمته بكم، وأن الله ذو رأفة عظيمة، ذو رحمة واسعة، لعجل العقوبة لكل من خاض في الإفك، وكل من سكت عنهم.

٢١ - يخاطب الله المؤمنين محدراً لهم من اتباع مسالك الشيطان، ومعصية الرحمن. ومن يسلك طرق الشيطان فإنه يأمر بالخبائث والجرائم والمعاصي. ولو لا فضل الله عليكم ورحمته بكم ما ظهر من دنس الخبائث أحداً، ولكن الله تعالى يظهر من يشاء بفضله. والله سميح لأقوالكم، عليم بفعالكم.

٢٢ - سبب النزول:

ورد في حديث الإفك قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: فلما أنزل الله في

براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة؛ لقربته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتِي أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعْدَةُ أَنْ يُؤْتَوْا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينُ وَالْمُهَاجِرُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَيَعْفُوا وَلَيَصْفَحُوا أَلَا تَحْبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال أبو بكر: بل والله، إني أحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً. (متفق عليه كما تقدم في أول تفسير السورة).

التفسير:

يَحُثُ الله تعالى على مكارم الأخلاق، فيه المؤمنين من أهل الفضل والسعادة في المال أن يحلفو بالله على ترك صلة أقاربهم الفقراء والمحتاجين والمهاجرين في سبيل رضا الله؛ بسبب الإساءة إليهم، حتى ولو كانت الإساءة شديدة. ثم أمر بالغفو عن الذنب وإزالة أثره في النفس، حتى لا يبقى الغل فيها، ثم نبه على ذلك سبحانه بقوله: ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟ والله غفور للذنوب التائبين، رحيم بهم.

٢٣ - ٢٥. إنَّ الَّذِينَ يَقْذِفُونَ بِالْزَّنْيِ الْمُؤْمِنَاتِ الطَّاهِرَاتِ الْقُلُوبُ عَنِ الْمَعَاصِيِّ، طُرِدُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ فِي الدُّنْيَا، بِإِقَامَةِ حَدَّ الْقَذْفِ عَلَيْهِمْ، وَفِي الْآخِرَةِ بِعِذَابِ النَّارِ الشَّدِيدِ الْأَلَمِّ. وَذَلِكُ العِذَابُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ حِينَ تَشَهَّدُ عَلَى الْإِنْسَانِ الْأَلْسِنُ وَالْأَيْدِيُّ وَالْأَرْجُلُ، بِكُلِّ مَا ارْتَكَبَ مِنِ الْجَرَائِمِ. وَفِي هَذَا الْيَوْمِ يَجْازِيَهُمُ اللهُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ بِالْعَدْلِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ الَّذِي لَا يَظْلِمُهُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.

قال الشيخ الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهُمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقُّ﴾. المراد بالدين هنا الجزاء، ويدل على ذلك قوله: ﴿يُوَفِّيهِمُ﴾؛ لأن التوفية تدل على الجزاء، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُبَرِّئُهُمْ الْجَزَاءُ الْأَوَّلُ﴾ [النجم: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّرُكُمْ أَجُوزَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

٢٦. الْخَبِيثَاتِ مِنَ النِّسَاءِ لِلْخَبِيثِينِ مِنَ الرِّجَالِ، وَالْخَبِيثُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلْخَبِيثَاتِ مِنَ النِّسَاءِ. وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ النِّسَاءِ لِلْطَّيِّبِينِ مِنَ الرِّجَالِ، وَالطَّيِّبُونَ مِنَ الرِّجَالِ لِلْطَّيِّبَاتِ مِنَ النِّسَاءِ. أَوْلَئِكَ هُمُ الْبَعِيْدُونَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ خَبِيثٍ، الْأَبْرَيْأَةِ مَمَّا يَقُولُهُ أَصْحَابُ الْإِفْكِ. لَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ مَغْفِرَةً لِذَنْبِهِمْ وَرِزْقٌ وَافِرٌ فِي الْجَنَّةِ.

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - عظيم جرم من يُشيع الفاحشة بين المؤمنين، ومن يحب ذلك.
- ٢ - في الآية (١٩) إخبار مستقبلي عن عاقبة الذين يحبون شيع الفاحشة في المسلمين، بأن لهم في الدنيا عقوبة القذف، وغيرها من البلايا الدنيوية، ولهم في الآخرة عذاب النار، إن لم يتوبوا.
- ٣ - الترغيب في العفو والصفح عن أساء إذا تاب.
- ٤ - في الآية (٢١) إخبار مستقبلي عن حال من يسلك طريق الشيطان فإنه يأمره بالمنكر. وفيها إخبار مستقبلي آخر، وهو أن الله بفضله ورحمته بالمؤمنين يظهر من يشاء من دنس ذنوبهم.
- ٥ - في الآية (٢٣) إخبار مستقبلي عن عاقبة الذين يقذفون العفيفات المؤمنات الغافلات اللاتي لم يخطر ذلك بقلوبهن لأنهم مطرودون من رحمة الله في الدنيا والآخرة.
- ٦ - تشنيع جريمة قذف المحسنات، وفي مقدمة ذلك تحريم التعرُّض لأم المؤمنين عائشة زوج رسول الله ﷺ التي نزلت فيها الآيات، وكذا سائر زوجاته أمهات المؤمنين.
- ٧ - فضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه وابنته الصدِّيقَة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وعظيم منزلتهما عند الله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتَسْلِمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾٢٧﴾ فَإِن لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ أَرْجِعُوهَا هُوَ أَزَكَّى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلَيْهِمْ ﴾٢٨﴾ لَيَسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَسْعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدِونَ وَمَا تَكُونُونَ ﴾٢٩﴾

التفسير:

- ٢٧ - يُرشد الله تعالى المؤمنين إلى آداب الاستئذان في دخول البيوت، ويُفصّل أحکام النظر في الآيات الخمس الآتية: لا تدخلوا مساكن غير

مساكنكم حتى تستأذنوا بالدخول على أهلها، وَتُسَلِّمُوا عَلَيْهِم بِقولِكُمْ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ، أَدْخُلُ؟ ذَلِكُمُ الْأَدْبُ الرَّشِيدُ خَيْرٌ لَكُمْ مِنَ الدُّخُولِ فَجَاءَهُمْ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ؛ لَكِي تَعْظِيزُوا وَتَعْمَلُوا بِهَذَا الْأَدْبَ الْكَرِيمَ.

٢٨ - فَإِنْ لَمْ تَجِدُوهَا فِي بَيْوَاتِ الْآخَرِينَ أَحَدًا يُسَمِّحُ لَكُمْ بِالدُّخُولِ فَلَا تَدْخُلُوهَا، حَتَّى يُسَمِّحَ لَكُمْ بِدُخُولِهَا. فَإِنْ لَمْ يُسَمِّحْ لَكُمْ بِالدُّخُولِ، وَطُلِبَ إِلَيْكُمُ الرَّجُوعُ فَارْجِعُوهَا، وَالرَّجُوعُ أَطْهَرُ وَأَكْرَمُ. وَاللَّهُ بِكُلِّ مَا تَعْمَلُونَ عَلِيهِمْ، لَا يَخْفِي عَلَيْهِ شَيْءٌ.

٢٩ - أَمَّا إِذَا كَانَتِ الْبَيْوَاتُ عَامَّةً لَيْسَ مُخَصَّصَةً لِسُكُنِيْ أَحَدٍ، كَالرِّبَاطَاتُ وَالاسْتِرَاحَاتُ الْعَامَّةُ، وَلَكُمْ فِيهَا مَصَالِحٌ، فَلَا إِثْمٌ عَلَيْكُمْ مِنْ دُخُولِهَا. وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُظْهِرُونَ وَمَا تُخْفُونَ فِي صُدُورِكُمْ.

الفوائد والاستنباطات:

١ - وجوب الاستئذان على كُلِّ مَنْ أَرَادَ دُخُولَ بَيْتِ مُسْكُونٍ، سُوِّيْ بَيْتِهِ.

٢ - ينبغي على كُلِّ أَحَدٍ أَنْ لا يَمْتَعِضَ أَوْ يَتَأَثَّرَ حِينَ يُعْتَذِرُ مِنْهُ عَنِ استقباله في دُخُولِ بَيْتِ مَنْ يَطْرُقُ بَابَهُ؛ فَلِلنَّاسِ أَحْوَالٌ خَاصَّةٌ، وَلِلْبَيْوَاتِ أَسْرَارُهَا.

٣ - سقوط الاستئذان عند إرادة دُخُولِ الْأَمَاكِنِ الْعَامَّةِ؛ كَالْمَحَلَّاتِ التَّجَارِيَّةِ، وَالْمَدَارِسِ، وَالجَامِعَاتِ، وَالْفَنَادِقِ، وَنَحْوُهَا.

٤ - بيان حُرْمَةِ النَّظَرِ إِلَى العُورَاتِ.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُبُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَرْبَعُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾٢٣١ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُبْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبَدِّيْنَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلِيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبَدِّيْنَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِعُوَالَتِهِنَّ أَوْ أَبَابَاهِنَّ أَوْ أَبَابَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَاءِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانَهُنَّ أَوْ التَّسْعِيرَ غَيْرُ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الْطَّفَلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهِرُوا عَلَى عُورَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبَنَ بِأَجْلَاهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوَبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُمُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾٢٣٢ وَإِنَّكُمْ حُوَاجِرٌ الْأَيْمَنَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَامَكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءٍ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلِيِّمٌ ﴾٢٣٣ وَلَيَسْتَعِفِفُ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ نِحَاماً حَتَّى يُغْنِيْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانَكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتُوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي أَتَنَّكُمْ وَلَا تَكْرِهُوْنَا فَنَيَّتُكُمْ عَلَى الْعِنَاءِ إِنْ أَرَدْنَا تَحْصَنَا لِتَبْغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يَكْرِهُهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾٢٣٤ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِدَةً لِّمُتَّقِينَ ﴾٢٣٥

التفسير:

٣٠ - يأمر الله ﷺ رسوله ﷺ أن يبلغ المؤمنين بأمر عظيم يتراهم فيه كثير من الناس، ألا وهو كف النظر عمما لا يحل النظر إليه، وأن يصونوا فروجهم باجتناب المحرمات. ذلك الأمر العظيم أظهر لهم حسياً ومعنىًّا. إن الله خير بما يصنعون من الغض والحفظ.

٣١ - وقل أيضاً للمؤمنات أن يكففن النظر عمما لا يحل النظر إليه، ويحفظن فروجهن عمما حرم الله، ولا يظهرن زينتهن للرجال إلا ما ظهر منها، وهي الشياطين الظاهرة، وليلقين بأغطية رؤوسهن على وجوههن وفتحات ثيابهن العليا، ولا يظهرن زينتهن الباطنة إلا لأزواجهن. أمما الزينة الظاهرة كالكحل والقلادة والأقراط والأساور فهي ضوابط حدود الوجه والكففين التي تباح

رؤيتها في البيت لآبائهن أو آباء أزواجهن أو أبناءهن - ويدخل في ذلك أولاد الأبناء وأولاد البنات مهما نزلوا - أو أبناء أزواجهن، أو إخوانهن أو أبناء إخوانهن، أو أبناء أخواتهن، أو النساء المسلمات التابعات لهن بالخدمة، أو ما ملِكُنَ من العبيد، أو الذين يتبعون غيرهم من الرجال وليس لهم غرض بأمور عورات النساء. وأمّا زينة الخلخال في القدم فلا يُظْهِرُنَها، بل لا يضربن بأرجلهنَ عند مشيَّهنَ؛ لِيُسْمِعُنَ صوت الخلخال الذي خَفِي تحت الملابس. وتوبوا إلى الله جمِيعاً - أيها المؤمنون - من مخالفة هذه الأحكام العظيمة؛ لكي تفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة.

أخرج الطبرى بسنده الحسن عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رض، قوله: ﴿وَلَا يُبَدِّلَنَ زِينَتَهُنَ إِلَّا مَا أَظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: والزينة الظاهرة: الوجه، وكحل العين، وخصاب الكف والخاتم، فهذه تظهر في بيتها لِمَنْ دَخَلَ من الناس عليها. ا.هـ. هكذا تمام كلام ابن عباس رض، ولكن كثيراً من العلماء ينقلون عنه الشق الأول، فما نُسِبَ إلى ابن عباس بأنَّ المراد من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا أَظَهَرَ مِنْهَا﴾: الوجه والكفان، ليس مطلقاً، وإنما هو مُضيَّدٌ في بيتها لِمَنْ دخل من الناس عليها. وممَّا يؤكِّد هذا تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النِّسَاءُ قُلْ لَا زَوْجَكَ وَبَنَاهُكَ وَسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيلِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفَنَ فَلَا يُؤْذِنُنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩]. أنَّ عائشة رض كانت تقول: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَيَصْرِينَ بِخُمُرِهِنَ عَلَى جُيُونِهِنَ﴾ أخذَنَ أُزْرَهُنَ فَشَقَّقَهَا من قبل الحواشى، فاختمرنَ بها.

(صحيح البخاري ٣٤٧ / ٨ برقم ٤٧٥٩ - كتاب التفسير - سورة النور، باب الآية)
(التفسير الصحيح ٤ / ٣٣٤).)

٣٢ - أُرْدِفْتُ أوامر العفاف بالإرشاد إلى ما يُعين عليه، ويعُفُّ المؤمنين والمؤمنات، ويغُضُّ من أبصارهم، فأمر الله تعالى المؤمنين من الأولياء والأسياد أن يُزَوِّجوا مَنْ لم يتزَوَّج من المؤمنين الصالحين القادرين على المهر والنفقة، سواءً كانوا رجالاً ونساءً، أحرازاً وعيادةً، ويجب إعانتهم على ذلك. إن يكن الراغب في الزواج فقيراً فلا يمنعكم ذلك من إنكافه، فإنَّ الله يرزقه ويعُزِّيه من فضله الكبير. والله كثير الخير على خلقه، عليم بمصالحهم.

٣٣ - سبب النزول:

عن جابر رضي الله عنه قال: كان عبد الله بن أبي بن سلول يقول لجاريه له: اذهب بي فأبغينا شيئاً. فأنزل الله ع: ﴿وَلَا تُكَرِّهُوْ فَنِيَتُكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَا تَحْصِنَاهُ لَبَنَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكَرِّهُهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ﴾ لهنَ ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. (صحيح مسلم ٢٣٢٠ / ٤ - كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكَرِّهُوْ فَنِيَتُكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾).

التفسير:

لما ذكر وعد الله من يزوج من العبيد الفقراء بالغنى ، وكان من وسائل غناه أن يذهب ليكتسب بعمله ، أمر الله السادة بإجابة من يتغير الكتابة من عبيدهم تحقيقاً لمقصد الشريعة من بث الحرية في الأمة وتوسيع المخرج من الرّقّ ، فليجتهد بالصيام لطلب العفة عن المحرمات من لا يتمكّن من تكاليف الزواج . والذين يريدون أن يتحرّروا من الرّقّ ، عليهم مكابة أسيادهم بأن يدفعوا لهم المال على أقساط ، فيجب الاستجابة لهم إن عرفتم منهم الأمانة والرشد ، وأعينوهم بالمال على دفع تلك الأقساط . ولا تُجبرُوا جواريكم على الزنى إن أردن العفة - أمّا إذا لم تُرِدِ العفة فيجب على سيدها مَنْعُها - فلا يجوز هذا الإكراه لأجل الحصول على المال وتكتير العيال . ومنْ يُجبرهُنَّ على الزنى فإنَّ الله غفور لهنَ ، رحيم بهنَ ، وذنب الجريمة على منْ أكرههنَ .

قال ابن عاشور: «إن ذكر الإكراه جرى على النظر لحال القضية التي كانت سبب النزول». (التحرير والتنوير: ١٨١/١٨).

٣٤ - قسماً لقد أنزلنا إليك آيات واضحات الأحكام ، وضربنا لكم الأمثال بمن سبقكم من الأمم الماضية ، كما أنزلنا إليك موعدة ترقب قلوب المتقين .

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - إنَّ غَضَّ البصر من أهم الأسباب في حفظ الفروج .
- ٢ - وجوب غَضَّ البصر ، وحِفْظ الفرج ، يستوي فيه الرجال والنساء .
- ٣ - قال مكي بن أبي طالب: «ليس في كتاب الله آية أكثر ضمائراً من هذه الآية ، جمعت خمسة وعشرين ضميراً للمؤمنات من مخوض ومرفوع ، وسماتها أبو بكر بن العربي آية الضمائراً». (التحرير والتنوير: ١٧١/١٨).

- ٤** - وجوب ستر المرأة زينتها عَمَّنْ لا يَحِلُّ له النظر إليها.
- ٥** - وجوب وضع المرأة خمارها على جيدها؛ لستر فتحات صدرها وعنقها.
- ٦** - سُتُرُ المرأة لجسدها على النحو الذي شرعه الله حضارة ومدنية، والبعد عنه هوى وتأخر.
- ٧** - بيان المحارم الذين يجوز للمرأة المؤمنة أن تُبَدِّي زينتها عندهم بلا حرج.
- ٨** - على المرأة اجتناب أي حركة أو إشارة تؤدي إلى لفت الرجال إليها.
- ٩** - وجوب الاستعفاف والصبر عند عدم القدرة على الزواج؛ حتى يُيسَرَ الله الأمْرُ.
- ١٠** - لا ينبغي أن يكون الفقر عائقاً عن الزواج، فالله تعالى يُعين الفقير الباحث عن العفاف بالزواج.
- ١١** - قال ابن عاشور: «دخول الفاء في ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ لتضمين الموصول معنى الشرطية، كأنه قيل: إن ابتعي الكتاب ما ملكت أيمانكم فكاتبوهم، تأكيداً لترتيب الخبر على تحقق مضمون صلة الموصول». (التحرير والتنوير: ١٧٥/١٨).
- ١٢** - تقرير مكاتببة المملوك للحصول على حرفيته، إذا كان له مال يستطيع منه تمويل مكاتبته، مع وجوب إعانته.
- ١٣** - فظاعة إكراه الآخرين على فعل ما لا يرغبون فيه، ولا سيما إذا كان الأمر المُكرَه عليه هو الزّنى.
- ١٤** - المكره على فعل شيء لا يلحقه إثمها.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثُلُّ نُورٍ، كَمِشْكَوْقٍ فِيهَا مِصَبَّاحٌ أَمْصَابُهُ فِي زُجَاجَةِ الرُّجَاجَةِ كَانَهَا
كُوكُبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةِ مُبَرَّكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرِقَيَّةٍ وَلَا غَربَيَّةٍ يَكَادُ زَرْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ
تَسْسَهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذَكَّرُ فِيهَا أَسْمُهُ يَسِّحُّ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُرِ
وَالْأَصَالِ ﴿٢٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِمُهُمْ تَحْرِرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامُ الْصَّلَاةِ وَإِيمَانُ الرَّجُوْنَ يَخَافُونَ يَوْمًا
لَنَقْلَبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَرُ ﴿٢٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ
يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كُرَبَّاً قِيَعَةٌ يَحْسِبُهُ الظَّمَآنُ مَا
حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَحْدُهُ شَيْئًا وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابٌ، وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٩﴾ أَوْ
كُطُلْمَتِ فِي بَحْرٍ لَّهِيَّ يَعْشَهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، حِسَابٌ ظُلْمَتِ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ
إِذَا أَخْرَجَ يَكْدِيرَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٣٠﴾

التفسير:

٣٥ - الله هادي أهل السموات والأرض، مثل هدي الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين كمثل كوة فيها مصباح قد اجتمع ضوءه فيها، وهذا المصباح في داخل زجاجة شبيهة بكوكب يشع كالدر. ويُوقد هذا المصباح باستمرار من زيت نقي يخرج من شجرة زيتون مباركة ليست شرقية، فلا تحظى بالشمس في آخر النهار، وليس غربية، فتحترم من الشمس في أول النهار، فريتها أجود نوع، يكاد من صفاتي وبريقه يضيء بنفسه من غير نار، فإذا مسسته النار سطع شعاع نوره، فهو نور على نور؛ إذ اجتمعت عدة أسباب في ذلك النور الساطع، فهو مثل هدي الإيمان والقرآن اجتمع في قلب المؤمن، يهدي الله تعالى إلى هذا النور من يشاء من عباده. ويبين الله الأمثال للعباد؛ ليعتبروا. والله بكل شيء من الأشياء علیم، لا يخفى عليه شيء.

٣٦ - هذا النور سطع شعاعه في مساجد، أمر الله أن تُعظَّم ببنائها وصيانتها وعماراتها بالمصلين، فيذكر فيها اسم الله تعالى بالأذان وقراءة القرآن، والأذكار التي تملأ الميزان من التسبيح والتحميد صباحاً ومساءً.

٣٧ - ٣٨ - يُثني الله تعالى على العباد والرجال الذين يَعْمِرون المساجد
بالأذكار والصلوات، لا تشغلهم أرباح التجارة، ولا صفقات البيوع عن ذكر
الله سِرّاً وجهراً، ولا تمنعهم من المحافظة على أداء الصلاة بأوقاتها، وإعطاء
الزكوة لمستحقيها، يخافون يوم القيمة الذي تضطرب فيه القلوب، بين رجاء
الرحمة وخوف النعمة، وتضطرب الأبصار من رؤية الأهوال، تتربّق مصيرها،
من أجل أن يعطيهم الله أحسن الثواب على عملهم الصالح، ويزيدهم مِنْ
نعمته. والله تعالى يُعطي مَنْ يشاء من عباده عطاً واسعاً بغير حساب.

٣٩ - لَمَّا جَرِي ذِكْرُ أَعْمَالِ الْمُتَقِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَجَزَائِهِمْ عَلَيْهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَسِّيْحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ لِيَجِزِّهِمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَبِزِيْدِهِمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِعِيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨] أَعْقَبَ ذَلِكَ بِضَدِّهِ مِنْ حَالِ أَعْمَالِ الْكَافِرِينَ الَّتِي يَحْسُبُونَهَا قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَمَا هِيَ بِمُعْنَيَةِ عِنْهُمْ شَيْئاً عَلَى عَادَةِ الْقُرْآنِ فِي إِرْدَافِ الْبِشَارَةِ بِالنِّذَارَةِ ، فَأَعْمَالُ الْكَفَارِ شَبَهَ سَرَاباً - وَهُوَ مَا يُرَى مِنْ لِمَعَانِ الشَّمْسِ وَقَتُ الظَّهِيرَةِ فِي الْأَرْضِ الْمُنْبَسَطَةِ - يُظْهِنُهُ الْعَطْشَانُ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَ مَوْضِعَهُ لَمْ يَجِدْهُ مَاءً ، فَالْكَافِرُ يَظْهُرُ أَنَّ عَمَلَهُ الْخَيْرِيَ يَنْفَعُهُ ، فَإِذَا وَافَى اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَحَاسِبَهُ عَلَيْهِ لَمْ يَجِدْ لَهُ شَيْئاً . وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ لِعِبَادِهِ .

٤٠ - أَوْ أَنَّ أَعْمَالَهُمْ شَبَهَ ظِلَامَاتٍ مُتَرَاكِمَةً فِي بَحْرٍ عَمِيقٍ، يَعْلُوَهُ مَوْجٌ
مُتَلَاقِطٌ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَفَوْقَ الْمَوْجِ الْعَالِيِّ سَحْبٌ كَثِيفٌ تَحْجَبُ النَّظَرَ،
حَتَّى إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَقْارِبْ رَؤْيَتَهَا، فَكَذَلِكَ الْكَافِرُ يَتَخَبَّطُ فِي الضَّلَالِ
وَالْمُعَاصِي، وَمَنْ لَمْ يَهُدِ اللَّهُ لِلْإِيمَانِ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ يَهُدِيهِ.

الفوائد والاستنطارات:

١ - ينظر : بعض برکات شجرة الزيتون من خلال التقارير الطبية عن فوائد زيت الزيتون المذكورة في تفسير سورة المؤمنون الآية (٢٠) .

٢ - في الآية (٣٥) إخبار مستقبلٍ بأنَّ الهدایة بيد الله عَزَّ وَجَلَّ وحده، يهدي ويُوْقِنُ لاتِّباع القرآن مَنْ يشاء. وفيها إخبار مستقبلٍ آخر، وهو أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ علیم بكلِّ شيء، لا يخفى عليه شيء، فهو علیم بما كان، وبما سيكون، وبما هو عليه كائن.

- ٣ - استحسانُ ضَرْبِ الأمثال؛ لتقريب المعاني.
- ٤ - وجوب تعظيم بيوت الله تشييداً وبناءً وعمارةً بذكر الله.
- ٥ - المؤمن الحق لا يُلهي عن الصَّلاة وذِكْرُ الله أَيُّ أَمْرٍ مَهْمَا عَظُمَ.
- ٦ - عَظَمُ يوم القيمة وأهواله الشديدة.
- ٧ - في الآية (٣٨) إخبار مستقبليٌ عن جزاء مَنْ لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وأقاموا الصَّلاة وآتوا الزَّكَاة لمستحقيها، بِأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سيعطيهم ثواب أحسن أعمالهم، وسيزيدهم من فضله بمضاعفة حسناتهم. وفيها إخبار مستقبليٌ آخر، وهو أَنَّ اللَّهَ وحده هو الرَّازِقُ، يرزق مَنْ يشاء بغير حساب.
- ٨ - لا ثواب للكافر على عمله الصالح؛ لأنَّه لا يرجو به وجه الله تعالى، ولا يستند إلى الإيمان به.
- ٩ - ظاهرة السراب لها صفات منها: أن السراب يحدث في كل الأماكن التي تكون فيها الأرض منبسطة ومستوية، ومنها أنه: لا يحدث إلا بوجود الهواء المتحرك (تيارات الحمل) فتظهر طبقات الهواء متوجة مثل الماء، ومنها أنه كلما اقتربنا من السراب ابتعد عنا، وهنا يكمن سر الإعجاز في الآية القرآنية. (مجلة الإعجاز العلمي: ص ٢٩، العدد ٣٦، جمادى الأولى، ١٤٣١هـ).
- ١٠ - اكتشف العلم التجاري وجود ظلمات في البحار العميق، ووجود أمواج داخلية فيها مخالفة للأمواج السطحية، وأن هذه الظلمات متراكبة بعضها فوق بعض حيث تزداد بالتدريج مع زيادة العمق حتى تنعدم الرؤية تماماً. ولقد ذكر القرآن الكريم معلومات دقيقة عن وجود ظلمات في البحار العميق، وأشار إلى سبب تكوينها، ووصفها بأن بعضها فوق بعض، كما أخبر بأن هذا الموج الداخلي يغطي البحر العميق، الأمر الذي لم يعرف إلا بعد صناعة الغواصات بعد الثلاثينيات من القرن العشرين، كما أخبر القرآن عن دور الموج السطحي، والموج الداخلي في تكوين ظلمات في البحار العميق. (الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: عبد الله بن عبد العزيز المصلح: ص ٢٢٧ - ٢٢٨).

وقيعان البحار العميق والمحيطات تغرق في ظلام دامس؛ وذلك لأن أعمقها تتراوح بين مئات الأمتار ١١٠٣٤ مترًا، بمتوسط يقدر بنحو

(٣٧٩٥) مترًا، وأشعة الشمس لا يمكنها الوصول إلى تلك الأعماق أبدًا.
 (آيات الإعجاز العلمي، الأرض في القرآن للدكتور زغلول النجار، ص ٩٧ - ١١٢).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَيِّحُ لَهُوَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَفَّتِ كُلُّ قَدْ عِلْمَ صَلَانُهُ وَتَسِيبُهُ^{٤١} وَاللَّهُ عِلْمٌ بِمَا يَعْلَمُونَ ﴾٤٢ وَلَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾٤٣ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُبَرِّجِي سَحَابَاتِمْ يُؤْلِفُ بَيْنَهُمْ مَمْ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلْلِهِ وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جَبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرُفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَابَرْقَهُ يَدْهُبُ إِلَى الْأَبْصَرِ ﴾٤٤ يُقْلِبُ اللَّهُ الْأَيَّلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعْبَةً لِأُولَئِكَ الْأَبْصَرِ ﴾٤٥ وَاللَّهُ حَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فِيهِمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَحْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾٤٦ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِيَّاكَ مُبِينَتِ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صَرَطِ مُسْتَقِيمٍ ﴾٤٧

التفسير:

٤١ - أعقِب تمثيل ضلال أهل الضلال، وكيف حرَّمهم الله الهدي، بطلب النظر والاعتبار، كيف هدى الله تعالى كثيراً من أهل السموات والأرض إلى تنزيه الله المقتضي الإيمان به وحده، فجاء الخطاب للنبي ﷺ: ألم تعلم علماً يقيناً أنَّ الله تعالى يُسَيِّحُ له على الدوام كلَّ شيء في السموات السبع، والأرضين السبع وما بينهما، والطير باسطات أجنحتها في السماء تُسَيِّحُ الله؟ كل مخلوق قد عرف كيف يُصلِّي، وكيف يُسَيِّح؟ والله عاليماً بأفعال هذه المخلوقات.

٤٢ - والله سبحانه ملكوت السموات السبع والأرضين السبع، وإليه المرجع يوم القيمة.

٤٣ - أعقِب الدلالة على إعطاء الهدي في قوانين الإلهام في العجمادات، بالدلالة على خلقِ الخصائص في الجماد، بحيث تُسِير على السير الذي قَدَّره الله لها سيراً لا يتغير، فهي بذلك أهدى من فريق الكافرين،

الذين لهم عقول وحواسٌ لا يهتدون بها إلى معرفة الله تعالى، فجاء الخطاب لكلٍّ مَنْ يعقل: ألم تشاهد أنَّ الله تعالى يسوق السحاب حيث يأمر، ثمَّ يجمعه بعد تفرقه، ثمَّ يجعله كثيفاً متراكماً بعضه فوق بعض، فترى المطر يخرج من بين السُّحب الكثيفة؟ - وذلك بعد عملية التلقيح التي تتم عند هبوب الرياح - وينزلُ من السحب التي تُشبه الرجال في ضخامتها وشَكْلِها بَرَداً من الثلج، فيُصيِّب بهذا البرد مَنْ يشاء من العباد بخيره وشرِّه، ويمنعه عَمَّنْ يشاء منهم، يكاد ضوء برق السحاب يخطف الأَبصار من شدة إضاءته.

٤٤ - من عظيم آيات الله الكونية أَنَّه يُقلِّب الليل والنهار بتعاقبهما، واختلافهما بالطول والقصر، والظلمة والنور، والبرد والحر. إنَّ في ذلك التقليل العظيم لَدلالَةً كبيرة يَنْعَظ ويَعْتَبر بها كلَّ مَنْ له بصيرة.

٤٥ - والله سبحانه خلقَ كُلَّ ما ذَبَّ على وجه الأرض من إنسان وحيوان من ماء: فمِنْ هذه المخلوقات مَنْ يمشي زحفاً على بطنه كالزَّواحف، ومنهم مَنْ يمشي على رِجلَيْن كالإنسان، ومنهم مَنْ يمشي على أربع كالأنعام. والله تعالى يخلق ما يشاء من هذه المخلوقات وغيرها. إنَّ الله تعالى على كُلِّ شيء من الأشياء ذو قدرة عظيمة، لا يعجزه شيء.

٤٦ - قسماً لقد أنزلنا علامات واضحات دالات على طريق الحق، والله يرشد مَنْ يشاء بتوفيقه إلى دين الإسلام.

الفوائد والاستنباطات:

١ - الاستفهام في بداية الآيتين (٤١، ٤٣) للتعجب من حال فريق المشركين الذين هم من أصحاب العقول، ومع ذلك قد حُرِّموا الهدى.

٢ - بيان الطريقة التي يتَكَوَّن منها السحاب، ويَتَنَزَّل منها المطر.

٣ - كُلُّ دوَابُ الأرض مخلوقةٌ من ماء.

٤ - ينظر: صورة البرد الذي يُصيِّب الله تعالى به، كما في الملحق.

٥ - عظم القوى الكهربائية المشتركة في تكوين البرد بالبرق وبيان شدته وبلغه من الحرارة درجة الايضاض الذي يخطف بالأَبصار ويصيِّبها بالعمى المؤقت، وأكثر من يعاني من هذه الظاهرة هم الطيارون: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرَقَهُ يَدْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾. (ينظر: سنن الله الكونية: الدكتور محمد أحمد الغمراوي، ص ٥٣).

٦ - يشكل الماء العنصر الأساسي في بناء أجسام جميع الأحياء، فيكون ما بين ٪٧١ من جسم الإنسان البالغ، و ٪٩٣ من جسم الجنين ذي الأشهر المعدودة، ويكون أكثر من ٪٨٠ من تركيب دم الإنسان، وأكثر من ٪٩٠ من تركيب أجسام العديد من النباتات والحيوانات.

وفي البناء المعقد لأجسام الكائنات الحية من الماء شهادة الله تعالى بالقدرة المبدعة في الخلق، وشهادة بقدرته بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ على إفشاء خلقه وعلى إعادة بعثه. (من آيات الإعجاز العلمي: الحيوان في القرآن الكريم: زغلول النجار: ص ٣٢٤ - ٣٤٢).

وَيَقُولُونَ إِنَّا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَأَطْعَانَاهُمْ يَتَوَلَّ فِي قِبْلَةِ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ
 ٤٧ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمْ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْضُونَ
 أَفَلَا يَكُنْ لَهُمْ الْحُقْقَاءُ يَأْتُونَا إِلَيْهِ
 مُذْعِنِينَ ٤٨ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ أَمْ أَرْتَابُ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْكُمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ
 الظَّالِمُونَ ٤٩ إِنَّمَا كَانَ قَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَيَعْنَا
 وَأَطْعَنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥٠ وَمَنْ يُطِيعُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الْفَائِرُونَ ٥١ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهَدَ أَيْمَنِهِمْ لِئَنِ امْرُهُمْ يَخْرُجُ فِي لَآنْ نَقْسِمُ طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ
 خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ٥٢ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلُّو فَإِنَّمَا عَلَيْهِمَا حَمْلٌ وَعَنِّيْكُمْ مَا
 حَمَلْتُمْ ٥٣ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ٥٤

التفسير:

٤٧ - يُحذِّرُ الله تعالى من جرائم المنافقين، ويُشْتِي على مكارم المؤمنين، ويزعم المنافقون بأسنتهم أنَّهم صدَّقوا بالله وبالرسول، وأطاعوا أوامرهم، ثم يُعرضُ جماعة منهم عن قبول حُكم رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ من بعد ذلك العهد العظيم. وما أولئك البعيدون عن الحق بمؤمنين حقاً.

٤٨ - وإذا دُعوا إلى اتباع حكم الله ورسوله؛ ليُفصلَ بينهم الخصومات، إذا جماعة منهم تستنكف، وتُعرِّضُ عن حضور الحكم في مجلس رسول الله بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وإن يكن الحُكْمُ في صالحهم يحضرها مطعين. ثم

جاء الإنكار والتوبیخ متتابعاً؛ بسبب إعراضهم. أفي قلوبهم نفاق، أم شَكُوا في رسالة النبي محمد ﷺ، أم يخافون أن يكون حکم الله ورسوله جائراً؟
الجواب: لا ، بل أولئك البعيدين عن الحق ، هم الجائزون المعتدلون.

٥٢ - إنما كان القول الحق للمؤمنين إذا دُعوا إلى اتّباع حکم الله ورسوله؛ ليفصل في النزاع بينهم، أن يُرْحِبوا بذلك الحکم الحکيم، ويَصْدَعُوا بقولهم: سمعنا ما تقول، وأطعنا الله والرسول، وأولئك أصحاب المنازل العالية هم الفائزون في سعادة الدنيا والآخرة. ومن يُطِيع الله تعالى ورسوله ﷺ في الأوامر والنواهي ، ويَخْشَ الله في أحكامه، ويَتَقَى عذابه، فأولئك أصحاب الدرجات الرفيعة ، هم الفائزون برضوان الله الكريم .

٥٣ - وَحَلَّفَ المنافقون بالله تعالى بإلحاح شديد، وبذلوا جهداً لزيادة التأکيد: لئن أمرتم - أيها الرسول - بالجهاد في سبيل الله ليَخْرُجُنَّ معك. فرَأَ الله عليهم؛ ليفضحهم ويُوَبِّخُهم: قل أيها الرسول لهم: لا تحلفوا، فإنَّ أمْرَكُم مكشوف؛ لأنَّ طاعتكم طاعة معروفة لا تتعدَّى اللسان. إنَّ الله خير بما تُدَبِّرون .

٥٤ - يُبَيِّنُ الله تعالى فضل الطاعة، فیأمر رسوله ﷺ أن يقول للعباد: أطِيعوا الله بالعمل في أحكامه، وأطِيعوا الرسول بالتمسُّك بهدِيه. فإنَّ أعرضوا فما على النبي ﷺ إلا ما كُلُّفَ به من تبليغ الرسالة، وعليكم ما أُمْرُتم به من الطاعة، وإنْ تُطِيعوا الرسول تهتدوا إلى الحق. وما على الرسول إلا التبليغ الواضح لرسالة ربِّه .

الفوائد والاستنباطات:

- ١ - التنديد بالمنافقين؛ لإعراضهم عن التحاکم إلى الله ورسوله .
- ٢ - التحذير من خداع المنافقين، وتحريم التخلُّق بصفاتهم .
- ٣ - وجوب المسارعة إلى طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ .
- ٤ - الشَّرْع كُلُّه - الذي هو دين الإسلام - مستقيم ليس فيه اعوجاج .
- ٥ - بيان صفة انقياد المؤمنين، أنَّهم إذا دُعوا إلى الله ورسوله؛ ليحكِّمَ بينهم يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ما يتلَكَّؤُون، ولا يتَرَدَّدون .
- ٦ - فائدة الطَّاعة والخشية والتَّقوى، الفوز بالجنة، والنجاة من النار .

٧ - المنافقون يُرِوْجُونَ كَذِبَهُم بِالْأَيْمَانِ الْمُغَلَّظَةِ، دُونَ مُبَالَاةٍ، وَلا خُوفٌ مِنَ الْعَقَابِ.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيَمْكُنَنَّ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي أَرْضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمَّا يَعْبُدُونَ فَنَّيْ لَا يُشْرِكُونَ فِي شَيْءٍ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَءْاْلُوا الزَّكَوةَ وَأَطْبِعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَيْلُهُمُ الْنَّارُ وَلِئِنْ أَصْبَرُ ﴿٥٧﴾ يَتَأْيَاهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَعْذِنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكُتُ أَيْمَنَكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْعُفُوا الْحُلْمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ شَيَّابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّفُوكُمْ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذِلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَتِ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلْمَ فَلِيَسْتَعِذُنَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذِلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ إِيمَانِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوْاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجِعُنَّ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضْعُنَّ شَيَّابَهُنَّ عَيْرَ مُتَبَرِّحَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

٥٥ - سبب النزول:

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله صلوات الله عليه وسلم وأصحابه المدينة، وأوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أننا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين، لا نخاف إلا الله، فنزلت: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيَمْكُنَنَّ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي أَرْضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمَّا إِلَى ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ يعني بالنعمة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ . (آخر جه الحاكم (المستدرك ٤٠١/٢ - كتاب التفسير، وصححه ووافته

الذهبي)، وأخرجه الضياء المقدسي في المختارة ٣٥٣/٣ - ٣٥٤ برقم (١١٤٥، ١١٤٦). قال محققه فيهما: إسناده حسن. وقال الهيثمي: رجاله ثقات (مجمع الزوائد ٨٣/٨).

التفسير:

٥٥ يُشَرِّعُ الله تعالى بالنصر لعباده المؤمنين العاملين بطاعته، إذ وعدهم وعداً مؤكداً بأن يجعلهم خلفاء في الأرض، مُتَصَرِّفين فيها تَصْرُفَ الملوك في ممالكهم، كما استخلف المؤمنين من قبلهم من الأمم الماضية، وأن يُمْكِنَ لهم دين الإسلام الذي ارتضاه لهم، وَيُبَدِّلُهُمْ أَمْنًا واطمئناناً من بعد خوفهم من أعدائهم، إذا أخلصوا العبادة لله وحده لا يشركون به شيئاً. ومن جَهَدَ شُكْرَ هذه النعم فأولئك البعيدون عن الحق، الخارجون عن طاعة الله تعالى.

٥٦ وأقيموا - أيها المؤمنون - الصلاة بأركانها وأوقاتها، وأدوا الزكاة إلى مستحقيها، وأطاعوا الرسول ﷺ بالتمسك بهديه؛ لكي تحظوا برحمته الواسعة.

٥٧ لا تحسِّنَ - أيها الرسول - أَنَّ الْكُفَّارَ يُعْجِزُونَ الله تعالى فلا يقدر على عقابهم، بل هو قادر على تدميرهم، ومصيرهم في الآخرة إلى النار، وبئس مصيرهم النار.

٥٨ يُعَلِّمُ الله تعالى المؤمنين الآداب الكريمة، والأحكام الحكيمية، في الاستئذان داخل البيت، من أجل المحافظة على سُرُّ العورات، فيا ملتهم أمراً مؤكداً أن يستأذن العبيد والإماء والأطفال الذين لم يبلغوا سنَّ الاحتلال عند الدخول عليهم، في ثلاثة أوقات: وقت النوم قبل صلاة الفجر، ووقت الظهرة حين يخلعون ثيابهم للقليلولة، وبعد صلاة العشاء وقت النوم والاستعداد له. وهذه الأوقات الثلاثة يُحتمل فيها ظهور العورات، أمما فيما سواها فليس عليكم ولا عليهم إثم في الدخول بغير استئذان؛ لأنَّهم خَدَمُوكم يَتَرَدَّدونَ عليكم كثيراً، وبعضكم يطوف على بعض. مثل ذلك البيان المتقدم يُبَيِّنُ الله لكم الأحكام الشرعية؛ للتأنُّ بها. والله علیم بأقوالكم وأفعالكم، حكيم في تدبير مصالحكم.

٥٩ وإذا بلغ الأطفال الأحرار منكم سنَّ البلوغ فعَلِّمُوهُمْ أدب الاستئذان؛ لكي يستأذنوا إذا أرادوا الدخول في كل الأوقات، كما وجَبَ

على الذين بلغوا من قبلهم. مثل ذلك البيان يبيّن الله تعالى لكم آياته التشريعية. والله عالم بأقوالكم وأفعالكم، حكيم في تدبير مصالحكم.

٦٠ والعجائز من النساء اللواتي قعْدنَ عن طلب الزواج، فلا يطمعن في الزواج لـكِبَر سنُّهُنَّ، فليس عليهم إثمٌ أن يتخفّفنَ بإلقاء الثياب الظاهرة كالجلباب والرداء الذي يكون فوق الثياب، بشرط ألا يُظْهِرُنَ الزينة الخفية كالخلخال. والتستر بارتداء الحجاب والرداء، كما تلبسه الشابات من النساء خير لهنَ وأطهر. والله سمِيع للأقوال، عَلِيهِم بالأعمال.

الفوائد والاستنباطات:

١ - في الآية (٥٥) إخبار مستقبليٌّ، وبشارة من الله بالنصر للذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة، إذا استقاموا على طاعته، بأن يورثهم أرض المشركين، ويجعلهم خلفاء فيها، وأن يجعل الإسلام ديناً عزيزاً مكيناً، وأن يُبدل حالهم من الخوف إلى الأمان، إذا عبدوا الله وحده، واستقاموا على طاعته.

٢ - تَحَقَّقَ وَعْدُ الله تعالى للمؤمنين بالتمكين في الأرض.

٣ - الإيمان والعمل الصالح سبب لاستمرار الأمن.

٤ - الوعيد الشديد لـمَنْ كَفَرَ نَعَمَ الله تعالى عليه، ولم يَقُم بواجبِ شُكْرِها.

٥ - تمام قدرة الله عَزَّلَهُ، وأنَّ الكافرين مهما بلغوا من القدرة فليسوا بمعجزين لله.

٦ - توجيه الخطاب للمؤمنين، والحكم لغيرهم يدلُّ على أنَّهم مسؤولون عنهم.

٧ - عدم دخول الأطفال غير المميّزين والخدم على أهليهم، قبل صلاة الفجر، ووقت الظهيرة، وبعد صلاة العشاء؛ لكون هذه الأوقات أوقات عورة. والمراد بالصغير: الذي يميّز؛ لأنَّ قوله: ﴿لَيَسْتَئْذِنُكُم﴾ دليل على أنه مميّز، يؤمر بالاستئذان فيستأذن.

٨ - وجوب استئذان الصغار والمماليك في ثلاثة أوقات فقط.

٩ - قال الشيخ ابن عثيمين: «تحريم النَّظر إلى العورة، سواء كان النَّاظر صغيراً أو كبيراً. وأمّا تهاون بعض الناس في نظر الصغير إلى العورة فهذا خطراً؛ لأنَّه لا بدَّ أن يرتسن في ذهنه هذا المنظر، ثُمَّ ربَّما يذكره في يوم من الأيام». (تفسير القرآن الكريم: ٣٩٦ / ٥).

١٠ - قال الشيخ ابن عثيمين: «التبُّرُج بالزينة حرام على العجائز؛ لقوله: ﴿عَيْرُ مُتَبَرِّحَتِ بِزِينَةٍ﴾، فهذا الشرط إذا تَخَلَّفَ صار عليهنَّ جناح بذلك». (تفسير القرآن الكريم: ٤٠٣ / ٥).

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَغْرَاجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِبْرَاهِيمَ كُمْ أَوْ بُيُوتِ أَمْهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَلَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكُوكُمْ مَفَاكِهَةٌ أَوْ صَدِيقَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جِمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلَّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحْيَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَّكَةً طِيبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُمْ عَلَى أَمْرٍ جَاءُوكُمْ لَمْ يَدْهَبُوا حَتَّى يَسْتَعْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَعْذِنُوكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَعْذَنُوكُمْ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَادْعُهُمْ لِمَنْ شِئْتُمْ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءَ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّمُونَ مِنْكُمْ لِوَادِعًا فَلَيَحْذِرُ الَّذِينَ يَخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَسِّبُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٤﴾

٦١ - سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان المسلمون يرغبون في النفير مع رسول الله

﴿فَيُدْفَعُونَ مَفَاتِيحَهُمْ إِلَى ضُمَنَاهُمْ، وَيَقُولُونَ: قَدْ أَخْلَلْنَا لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مَا احْتَجْتُمْ إِلَيْهِ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّهُ لَا يَحْلُّ لَنَا أَنْ نَأْكُلْ، إِنَّهُمْ أَذْنَوْا عَنِ الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِ أَبَائِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكُتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتَا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحْيَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَّكَةً طِبَّةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْأَيَّاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. (التفسير - سورة النور/ ٦١ - برقم ٨٩٤). وأخرجه الطبراني (التفسير/ ١٢٩/ ١٨) بمثله، وعزاه الهيثمي للبزار، وقال: رجاله رجال الصحيح (مجمع الروايد ٧/ ٨٣ - ٨٤) وحسن إسناده محقق ابن أبي حاتم، وصححه الحافظ ابن حجر (مختصر زوائد البزار: ٢/ ١١٨).

التفسير:

لا إثم على أصحاب الأعذار - كالاعمى والأعرج والمريض - أن يأكلوا مع الأصحاب؛ لأنّ هؤلاء كانوا يتحرّجون؛ لثلا يتضايق منهم الأصحاب، وكذلك لا إثم على المؤمنين إذا أكلوا من بيوتهم التي فيها أزواجهم وأولادهم. ولا إثم عليكم - أيها المؤمنون - أن تأكلوا من بيوت أولادكم، أو من بيوت آباءكم، أو بيوت أمهاتكم، أو بيوت إخوانكم، أو بيوت أخواتكم، أو بيوت الأعمام والعمّات والأحوال والحالات، أو البيوت التي لكم التصرف فيها بإذن أصحابها كالوكيل والخادم، أو بيوت الأصدقاء الذين علِمْتُمْ رضاهem. ولا إثم عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين. فإذا دخلتم أحد هذه البيوت المذكورة فسلّمُوا على أهلها - إن كانت مسكونة - بتحية الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وإن كانت غير مسكونة فالتحية هي: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وهذه التحية التي أمر الله بها كثيرة الخير، تطيب بها نفس السامع لها. مثل ذلك البيان الواضح يُبيّن الله تعالى لكم آيات الأحكام؛ لتفهموها وتعلموا بها، فستنتربوا بهديها.

٦٢ - إنما المؤمنون الصادقون حقاً هم الذين أقرّوا الله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة، وإذا كانوا مع النبي ﷺ على أمر جامع للمشاورة في مصلحة الأمة لم ينصرف أحد منهم حتى يطلب الإذن من النبي ﷺ. إنّ الذين

يطلبون منك الإذن أولئك هم المؤمنون حقاً؛ لأنهم أطاعوا حكم الله. فإذا طلب أحدهم الإذن منك لبعض شؤونهم وحاجتهم فاسمح بالانصراف لمن أردت منهم، واطلب لهم المغفرة من الله؛ لما في الاستئذان من تقديم المصلحة الخاصة على المصلحة العامة. إن الله غفور لذنوب عباده التائبين، رحيم بهم.

٦٣ - يُرِيدُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ لِأَدْبِلِ الْخَطَابَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَتَوْقِيرِهِ،
فینهاهم عند ندائهم للرسول ﷺ أن يقولوا له: يا محمد، كما يقول ذلك بعضهم لبعض، بل يجب توقيره واحترامه بنداء: يا رسول الله، يا نبی الله، بتأدب وتواضع، وكذلك الخروج من مجلسه، فإن من الأدب وجوب الاستئذان. إن الله لا يخفى عليه خروج المنافقين من مجلس رسول الله ﷺ خفية دون إذنه، بل يعرفهم. ثم حذر الله تحذيراً مؤكداً من مخالفته لأحكامه سبحانه؛ لأن المخالفة تؤدي إلى العقوبة بنزول المصائب والمحن في الدنيا، أو يصيّبهم عذاب النار الموجع في الآخرة.

٦٤ - تَبَّهُوا - أَيُّهَا الْعِبَادُ - أَنَّ اللَّهَ مَلِكُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَالْأَرَضِينَ
السبع، قد أحاط علمه سبحانه بجميع ما أنتم عليه من الإيمان والكفر وغيرهما، ويوم معاد العباد إليه، فيخبرهم إخباراً شاملأً عن أعمالهم الكاملة. والله بكل شيء من الأشياء علیم، لا يخفى عليه شيء.

الفوائد والاستنباطات:

١ - بيان رحمة الله ﷺ في نفي الحرج عن المذكورين .

٢ - قال الشيخ ابن عثيمين: «الأحكام تدور مع عيلها، فإذا وجدت العلة للحكم ثبت، وإذا انتفت انتفى الحكم؛ لأن نفي الحرج عن هؤلاء لهذه العلة التي فيهم، فإذا برئ المريض، واستقام مشي الأعرج، وردد الله البصر على الأعمى، انتفى الحكم في حقهم». (تفسير القرآن الكريم: ٤١٠ / ٥).

٣ - جواز الأكل من بيوت هؤلاء المذكورين ، سواء بإذن أو بغير إذن ، إلا إذا علمنا عدم رضاهم ، فإذا علمنا أنهم لا يرضون فلا يجوز الأكل من بيوتهم .

٤ - مشروعية السلام عند الدخول إلى البيوت .

- ٥** - فضيلة السلام؛ لكون الله تعالى وصفه بأنّه: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَّكَةً طَيِّبَةً﴾.
- ٦** - لا يجوز الانصراف عن عمل جامع إلا بالاستئذان من المسؤول، وللمسؤول أن يأذن لمن يستأذنه، أو لا يأذن.
- ٧** - يجب علىولي الأمر التيسير على من تحت يديه، ولكن الاستئذان بدون عذر لا يغفر.
- ٨** - وجوب احترام النبي ﷺ وتعظيمه، وأنه لا يجوز للإنسان أن يناديه، كما ينادي غيره من الناس؛ لما له من التعظيم والتوقير.
- ٩** - بيان شيء من صفات المنافقين وهي: الجبن، والاستهانة بالنبي ﷺ ومجلسه، والاختلاق الأذى للاستئذان.
- ١٠** - قال الشيخ ابن عثيمين: «ينبغي تأكيد الأمور الهامة، والتنبيه عليها، وأن تُصدر الأمور الهامة بما يؤكّد وينبه عليها؛ لقوله: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فإنَّ علمنا بذلك، وقرارنا واعتقادنا له، هذا أمر مهمٌ، ولهذا أكّد بـ﴿أَلَا﴾ و﴿إِن﴾». (تفسير القرآن الكريم: ٤٢٢/٥).